

السعي لبناء مجتمع خير وصلاح



قال تعالى: ﴿إِنَّ زَمَّامَ الْاُمَمِ وُؤْمِنُونَ اِرْخُونَ فَاَصْلِحُوا بِدِينِ اَخَوَيْكُمْ وَاَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات/ 10). إنَّ العمل على تحقيق الأخوة والتواصل والاجتماع وإصلاح ذات البين من أوجب الواجبات الإلهية ضرورة أنَّهُ لا يمكن بناء مجتمع متماسك يسير في خدمة الأهداف العُليا للإسلام ما لم يكن هذا التكليف قائماً ومعمولاً به لدى المسلمين حيث في المقابل يكون التشتت والتفرُّق وتحكم روح العداوة عاملاً هُديماً لا تستقيم معه مسيرة أهل الإيمان، وهو سبب في فشل وسقوط كثير من القضايا الهامة على مرَّ العصور ولا يزال، فالمطلوب أن تسود روح الجماعة والوفاق في إعزاز المصالح العامة، لا روح الفرد والشقاق في خدمة المصالح الخاصة بما تحكمها من أهواء ورغبات يقول عزَّ مَنْ قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران/ 104)، وفي بيان قرآني آخر تأكيد على أنَّ هذا الواجب هو غاية الإرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْيَدُ إِلَّا اِلْصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِلَا عِلِّيَّةٍ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَارْتَبِطْ بِهِ﴾ (هود/ 88). وفيما جاء عن الإمام الكاظم (عليه السلام): «يا بن بكير! إنِّي لأقول لك قولاً، قد كانت آبائي (عليهم السلام) - تقوله: إنَّ للحق أهلاً، وللباطل أهلاً، فأهل الحق يجأرون في إصلاح الأُمَّة بنا، وأن يبعثنا ارحمة للضعفاء والعامَّة».

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة/ 2)، إنَّ إغاثة الآخرين ومؤازرتهم في مواطن الشدائد ونزول المصائب أمر أولاه الإسلام اهتماماً كبيراً وهو من أعظم شيم وشمائل أهل الولاية سواء في الترابط والتزاور أو في تقديم المساعدات المالية أو البدنية أو المعنوية أو سائر أشكال التعاضد والتكافل سيَّما الفقراء والأيتام والمساكين. ويعتبر السعي في قضاء حوائج الناس من أعظم القُرَبات الإلهية التي أعدَّ عليها الثواب الجزيل فوق ما يتصوره الإنسان ويتوقعه حيث جاء عن الإمام الباقر (عليه السلام): «مَنْ مشى في حاجة أخيه المسلم أظله ارحمة وخمسة وسبعين ألف ملك ولم يرفع قدماً إلا وكُتِبَ ارحمة بها حسنة، وحط عنه بها سيئة ورفِع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب ارحمة له عزَّ وجلَّ بها أجر حاج ومعتمر». وفي الحديث أيضاً: «إنَّ عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة».

ومن العوامل الأساسية لبناء المجتمع هو التواضع والذي يعتبر مصدر قوّة للإنسان وليس ضعفاً ووهناً وبه الأمر في الكتاب الكريم: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء/ 215)، وقد أشاد أهل البيت (عليهم السلام) بشرف هذا الخلق واعتبروه من خصال المؤمن وسبباً في رفعة كما جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إنّ في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع ﴿رفعا، ومَن تكبّر وضعاه»، والذي يرتبط بمقامنا هو دور التواضع في عملية الإصلاح والعلاقة مع الآخرين فإنّه ليس هناك شكّ في أنّ بعض الناس يقومون بخدمة الآخرين أو إجابتهم لكنّ مع روح مستعلية وتكبر زائف من خلال ثقافة الطبقات والمييزات العرفية أو العائلية أو غيرها ممّا لا يقيم له الإسلام وزناً في واجب احترام الآخر وإنّما المدار على التقوى في الأفضلية، فمن هنا لا بدّ من إيضاح هذا الجانب من خلال الآثار التي يتركها في نجاح العلاقات الإنسانية أو فشلها والواقع أنّه لا يمكن التصديق أنّ التواصل والارتباط الوثيق بين أفراد أو مجتمعات هو قابل للاستمرار والديمومة طالما أنّ أحد الطرفين في إصرار وتصميم على استحقال الآخر والاستعلاء والتكبر عليه، فكيف يكتب ذلك في سجل محاولات الإصلاح مع كونه دعوة عملية لسيادة منهج الاستكبار الذي يبغضه ﴿عز وجلّ كلّ البغض حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر/ 60).

وهناك جوانب أساسية في معايشة الناس أكّد عليها القرآن الكريم وما هي إلا مصاديق ومفردات للتواضع الذي هو ركيزة النجاح في المعاملة معهم أو إصلاح أُمورهم أو مدّ يد العون لهم كما في سورة لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ رَوْسَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان/ 18)، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَزْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان/ 19).